المبحث الثاني
علاقة السلاجقة بالخلافة ودخول العراق والقضاء على الدعوة الشيعية الرافضة الباطنية:

أصبح السلاجقة في عام 447هـ أكبر قوة في العالم الإسلامي خاصة بعد أن فرضوا سيطرتهم على بلاد فارس وتغلبوا على الغزنويين والبويهيين [1]، وتوغلوا داخل أراضي الدولة البيزنطية واصطدموا بجيش الروم وبذلك أعطوا دفعة قوية للجهاد ضد الروم الذين عاثوا فساداً أيام البويهيين في أراضي الخلافة العباسية لعدم قدرة الخلافة ولعدم اكتراث أمراء البويهيين بالجهاد، وقد أكسب هذا العمل وبهذه الصورة السلاجقة شعبية كبيرة وسمعة حسنة بين جماهير الناس التي كانت في الماضي القريب ترى وتسمع عن تغطرس الروم وتنادي السلطة بضرورة مجابهتهم دون جدوى [2].

وكانت السلطة البويهية في بغداد تتداعى بسبب الخلافات بين الأمراء البويهيين من جهة وبين رجال الدولة من جهة أخرى، والانشقاق في صفوف الجيش البويهي وخاصة بين فرعيه الرئيسين التركي والديلمي، ويبدو أن الدعوة وجهت السلاجقة لاحتلال بغداد ليس من قبل الخليفة العباسي فقط بل من قبل الوزير رئيس الرؤساء والذي كان على خلاف شديد مع قائد الجيش التركي أبو الحارث البساسيري والذي اعتنق مذهب الفاطميين العبيديين وخطب لهم [3] لقد كان الوضع السياسي في العراق مشجعاً لطغرل بك على دخول بغداد، وهذا ما قام به فعلاً في محرم من سنة 447هـ وكان طغرل بك قد أظهر أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة والمسير إلى الشام ومصر والقضاء على حكم المستنصر بالله الفاطمي هناك، فسار إلى همدان وأمر أتباعه بإعداد الأقوات والمؤن [4]، وأرسل إلى الخليفة العباسي يخبره بأنه يدين له بالطاعة ويستأذنه في دخول بغداد - وهو في طريقه إلى مكه - فأذن له، ودخل العراق عن طريق حلوان من السنة نفسها [5] لقد ساند السلاجقة الخلافة العباسية في بغداد ونصروا مذهبها السنّي بعد أن أوشكت على الانهيار بسبب النفوذ البويهي الشيعي في إيران والعراق، والنفوذ العبيدي - الفاطمي - في مصر والشام، فقضى السلاجقة على النفوذ البويهي تماماً وتصدوا للخلافة العبيدية - الفاطمية -[6]. لقد استطاع طغرل بك الزعيم السلجوقي أن يسقط الدولة البويهية في عام 447هـ في بغداد وأن يقضي على الفتن وأزال من على أبواب المساجد سب الصحابة، وقتل شيخ الروافض أبا عبد الله الجلاب لغلوه في الرفض [7].

لقد كان النفوذ البويهي الشيعي مسيطراً على بغداد والخليفة العباسي، فبعد أن أزال السلاجقة الدولة البويهية من بغداد ودخل سلطانهم طغرل بك إلى عاصمة الخلافة العباسية استقبله الخليفة

(1) الدولة السلجوقية منُذ قيامها ص 141.
(2) الخلافة العباسية السقوط والإنهيار (164/2).
(3) المصدر نفسه (165/2).
(4) الدولة السلجوقية منُذ قيامها ص 145 نقلاً عن الكامل في التاريخ.
(5) قيام الدولة السلجوقية منُذ قيامها ص 145.
(6) السلاطين في الشرق العربي، د. عصام محمد شبارو ص 171.
(7) أيعيد التاريخ نفسه؟، محمد العبده ص 67.

العباسي القائم بأمر الله استقبالاً عظيماً وخلع عليه خلعة سنية وأجلسه إلى جواره، وأغدق عليه ألقاب التعظيم، ومن جملتها أنه لقب بالسلطان ركن الدين طغرل بك، كما أصدر الخليفة العباسي أمره بأن ينقش اسم السلطان طغرل بك على العملة، ويذكر اسمه في الخطبة في مساجد بغداد وغيرها، مما زاد من شأن السلاجقة، ومنُذ ذلك الحين حل السلاجقة محل البويهيين في السيطرة على الأمر في بغداد، وتسيير الخليفة العباسي حسب إرادتهم [1].

أولاً: النفوذ الفاطمي العبيدي في العراق وفتنة البساسيري:

1- النفوذ الفاطمي العبيدي في العراق: استغلت الحركات السرية المتكتمة ضعف الخلافة وراحت تنشط لإيجاد أرض لها وتغوي الناس بستار ظاهره التشيع وباطنة الكفر المحض، واستطاعت الحركة الإسماعيلية السرية التي تتخذ من بلدة – سلمية -[2] مقراً لها أن تجد أرضاً خصبة في شمال إفريقيا بعد أن مهد لها وأزال العقبات من طريقها داعيتهم الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الصنعاني الملقب بأبي عبد الله الشيعي، وقد وصف بأنه من الرجال الدهاة، دخل إفريقيا وحيداً بلا مال ولا رجال ولم يزل يسعى إلى أن ملكها[3]، وكان رئيسه في الدعوة ابن حوشب قد كلفه بأن يلتقي بقبيلة كتامة من المغرب في موسم الحج، وعندما التقى بهم استطاع بدهائه أن يؤثر فيهم ويتلاعب بعقولهم، وأعجبوا به فرحل معهم إلى بلادهم، والتفت عليه قبيلة كتامة وغيرها، وحارب القبائل الأخرى وسقطت مدن المغرب الأوسط سجلماسة وميلة وتاهرت ورقادة، حتى إذا ما مهّد للأمر.. واستقرت به الأحوال حتى أرسل إلى زعيم الدعوة طالباً إليه المجيء ليسلم إليه مقاليد الأمور، وهذا الزعيم هو عبيد الله من ذرية عبد الله ابن ميمون القداح الفارسي الباطني على رأي بعض المؤرخين، والبعض يقول: إنه ربيب الحسين بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح[4]، ولكنه زعم أنه من ذرية فاطمة، وأكثر العلماء والمؤرخين والنسابين ينفون عنه هذا النسب [5]، واستطاع عبيد الله النجاة من المراقبة الشديدة التي وضعت عليه بعد مغادرته لبلاد الشام وحتى وصوله إلى المغرب، ولكن والي سجلماسة ظفر به وأودعه السجن ولم يقتله، وهذا من الغفلة المعهودة، ثم إن أبا عبد الله الشيعي استطاع إنقاذه وتقديمه للناس إماماً للدعوة وقد بايعه هؤلاء، ولقب نفسه المهدي وهو مؤسس الدولة العبيدية التي تسمى بـ - الفاطمية -[6]، وهذه الدولة دولة باطنية وليست فاطمية، وهذا رأي أكثر علماء الأمة الذين حققوا نسبهم وعلموا بواطنهم وأسرارهم[7].

أ- عقيدتهم وصلتهم بالقرامطة: إن كثيراً من الكتاب المحدثين الذين كتبوا عن الدولة العبيدية لا يذكرون إلا سيرتهم السياسية، ولا يتطرقون من قريب أو بعيد إلى سوء اعتقاد ملوكها

(1) قيام الدولة العثمانية ص 19.
(2) بلدة في سوريا شرق مدينة حماه.
(3) وفيات الأعيان (192/2).
(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن أيعيد التاريخ نفسه؟ ص 38.
(5) أيعيد التاريخ نفسه؟ ص38.
(6) المصدر نفسه ص 38.
(7) المصدر نفسه ص 38.

وأنهم باطنيون وإن أظهروا خلاف ذلك؛ لأنهم يستعملون التقية أمام الشعب الذي يحكمونه وعندما استولى السلطان صلاح الدين وعزم على عزل العاضد آخر ملوكهم استفتى العلماء في قتله فأفتوه بجواز ذلك لما كان عليه العاضد وأشياعه من انحلال العقيدة، وكان أكثرهم مبالغة في الفتيا الشيخ نجم الدين الخبوشاني فإنه عدد مساوئ هؤلاء القوم وسلب عنهم الإيمان [1]، يقول ابن خلكان: وكان العاضد شديد التشيع متغالياً في سب الصحابة، وإذا رأى سنياً استحل دمه[2]، وصلتهم بالقرامطة الملاحدة صلة أكيدة، ودعوتهم دعوة واحدة، فقد كتب المعز إلى القرامطة عندما سمع بنبأ محاولتهم حصار مصر يذكر فضل نفسه وأهل بيته وأن الدعوة واحدة، وأن القرامطة إنما كانت دعوتهم إليه وإلى آبائه من قبله [3]، ويقول الإمام الشاطبي: أما الدجالون فمنهم معد من العبيدية الذين ملكوا إفريقية، فقد حكي عنه أنه جعل المؤذن يقول: أشهد أن معداً رسول الله، فهمّ المسلمون بقتله - أي المؤذن - ثم رفعوه إلى معد ليروا هل هذا عن أمره، فلما انتهى كلامهم إليه قال: اردد عليهم أذانهم لعنهم الله [4]، وعندما أقدم أبو طاهر القرمطي على شناعاته وإجرامه وأعماله الكفرية في مكة وبلغ ذلك عبيد الله المهدي كتب إليه ينكر عليه ذلك ويلومه يقول: قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت [5]، وعندما قُبض على الباطنين في بغداد وكانوا يكاتبون القرامطة، قال أحدهم: وإمامنا المهدي محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق المقيم في بلاد المغرب [6] وفي حوادث 414هـ قام رجل من المصريين (العبيديين) لضرب الحجر الأسود بآلة ثقيلة والسيف في يده الأخرى وهو يقول: إلى متى يعبد الحجر الأسود ومحمد وعلي، فتمكن منه أحد الحجاج من اليمن فضربه بخنجر فقتله[7]، وكل الإرهاب الذي زرعه الحشاشون في أنحاء العالم الإسلامي إنما هو ثمرة من ثمار الدعوة الإسماعيلية العبيدية الفاطمية في مصر فإن حسن الصباح زعيم قلعة الموت الذي أرسل رجاله يقتلون العلماء والأمراء المجاهدين إنما تلقى الدعوة على أيدي أصحابها في مصر [8]، وقد ناقش مجموعة من العلماء وطلاب العلم عقائدهم مثل الدكتور سليمان السَّلومي في كتابه أصول الإسماعيلية، وأستاذي وشيخي الدكتور أحمد محمد جلي في كتابه دراسة الفرق في تاريخ المسلمين الخوارج والشيعة، والأستاذ علوي طه الجبل، الشيعة الإسماعيلية رؤية من الداخل، والدكتور محمد أحمد الخطيب في كتابة الحركات الباطنية والدكتور غالب العواجي في كتابه فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام، والأستاذ محمد بن أحمد الجوير في كتابه الإسماعيلية المعاصرة، فمن أراد التوسع فليرجع إليها وإن مد الله في العمر وبارك في الوقت، فلنا لقاء موسع لدراسة الدولة الفاطمية العبيدية،

(1) وفيات الأعيان (111/3).
(2) المصدر نفسه (110/3).
(3) الكامل في التاريخ نقلاً عن أيعيد التاريخ نفسه؟ ص 42.
(4) الاعتصام (97/2).
(5) الكامل في التاريخ نقلاً عن أيعيد التاريخ نفسه؟ ص 42.
(6) المصدر نفسه ص 43.
(7) المصدر نفسه ص 43.
(8) المصدر نفسه ص 43.

فنسأل الله التوفيق والسداد.

ب- حكم العلماء في الفرق الباطنية:

* يقول الإمام محمد الغزالي في كتابه (فضائح الباطنية) وهو من مشاهير أهل العلم الذين خبروهم وعرفوا أسرارهم: إن مذهب الباطنية - مذهب ظاهره الرفض وباطنه الكفر المحض[1].

* وحينما تحدث البغدادي في الباب الرابع من كتابه الفرْق بين الفِرَق وضع عنواناً لهذا الباب قائلاً: بيان الفرق التي انتسبت إلى الإسلام وليست منه ثم ذكر من هذه الفرق الباطنية وقال: إن ضررها على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس، بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم بل أعظم من ضرر الدجال الذي يظهر في آخر الزمان؛ لأن الذين ضلوا بدعوة الباطنية من وقت ظهور دعوتهم إلى يومنا أكثر من الذين يضلون بالدجال في وقت ظهوره؛ لأن فتنة الدجال لا تزيد مدتها على أربعين يوماً وفضائح الباطنية أكثر من عدد الرمل والقطر.. إلى أن قال: الذي يصح عندي من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلها إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع وفي آخر الباب قال: وقد بينا خروج فرق الباطنية عن جميع فرق الإسلام بما فيه كفاية والحمد لله على ذلك[2].

وفي كتابه أصول الدين ذكر أن طائفة الباطنية خارجة عن فرق الأهواء وداخلة في فرق الكفر الصريح؛ لأنها لم تتمسك بشيء من أحكام الإسلام في أصوله ولا في فروعه وأن دعاتهم خالفوا المسلمين في التوحيد والنبوات وفي تأويل الآثار والآيات وأنهم كانوا دعاة المجوس بالتمويه إلى دين الوثنية، وبعد أن يستعرض عقائدهم يقول: واختلف أصحابنا في حكمهم. فمنهم من قال: هم مجوس، وأجاز أخذ الجزية منهم وحرم ذبائحهم ونكاحهم، ومنهم من قال: حكمهم حكم المرتدين إن تابوا وإلا قتلوا وهذا هو الصحيح عندنا.

ثم ساق البغدادي بعد ذلك فتوى الإمام مالك في الباطني، والزنديق وأنه قال عنهما: إن جاءا تائبين ابتداء قبلنا التوبة منهما وإن أظهرا التوبة بعد العثور عليهما لم تقبل التوبة منهما وإن هذا هو الأحوط فيهم[3].

* **وتحدث ابن حزم**: عن دار الإسلام ودار الحرب واعتبر أن الأراضي التي حكمها بعض الفرق الباطنية تعتبر دار كفر وذلك لصريح كفرهم وذلك كالقرامطة مثلاً وهم من فرق الإسماعيلية[4].

وأما ديار العبيديين لظهور الإسلام فيها فإنها وإن حكمها العبيديون تعتبر دار إسلام وإن كان حكامها في حقيقة أمرهم كفاراً يقول ابن حزم عن ذلك: إن من سكن في طاعة أهل الكفر من الغالية كالعبيدين ومن جرى مجراهم لا يعتبر كافراً لأن أرض مصر والقيروان وغيرهما الإسلام فيها هو

(1) فضائح الباطنية للغزالي ص 37.
(2) الفرق بين الفرق للبغدادي ص 220، 265 - 266، 278، 299.
(3) أصول الدين للبغدادي ص 329 - 331.
(4) أصول الإسماعيلية (66/2) د. سليمان السّلومي.

الظاهر وولائهم على كل ذلك لا يجاهرون بالبراءة من الإسلام بل إلى الإسلام ينتمون وإن كانوا في حقيقة أمرهم كفاراً، وأما من سكن في أرض القرامطة مختاراً، فكافر بلا شك لأنهم معلنون بالكفر وترك الإسلام[1]. فابن حزم يجزم بكفر القرامطة والعبيديين وهما من الإسماعيلية حيث الأولى فرقة من فرقهم وأما العبيديون فإنهم أئمة الإسماعيلية في فترة الظهور وعددهم اثنا عشر حاكماً [2].

ويصف الشاطبي الباطنية، بأنهم وثنية ثنوية دهرية إباحية ينكرون النبوة والشرائع وأمور المعاد، بل إنهم ينكرون الربوبية [3] **وأما ابن تيمية** رحمه الله فقال لما سئل عنهم: إن جمهور المصنفين من المتقدمين والمتأخرين ذكروا بطلان نسبهم حتى صنف العلماء في كشف أسرارهم وهتك أستارهم ومن ذلك **القاضي أبو بكر الباقلاني** ألف كتابه المشهور في كشف أسرارهم وهتك أستارهم وذكر أنهم من ذرية المجوس وذكر من مذاهبهم ما بَيّن فيه أن مذاهبهم شر من مذاهب اليهود والنصارى، بل ومن مذاهب الغالية الذين يدعون ألوهية علي أو نبوته فهم أكفر من هؤلاء، **وكذلك القاضي أبو يعلى في كتابه** المعتمد ذكر فصلاً طويلاً في شرح زندقتهم وكفرهم وكذلك **أبو حامد الغزالي** ذكر في كتابه الذي سماه "فضائل المستظهرية وفضائح الباطنية"، بأن ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض، وكذلك **القاضي عبد الجبار بن أحمد** وأمثاله من المعتزلة المتشيعة يجعلون هؤلاء من أكابر المنافقين الزنادقة، فهذه مقالة المعتزلة في حقهم، فكيف تكون مقالة أهل السنة والجماعة والرافضة الإمامية يعلمون مقالة هؤلاء مقالة الزنادقة المنافقين ويعلمون أن مقالة هؤلاء الباطنية شر من مقالة الغالية الذين يعتقدون إلهية عليرإلى أن قال:... وبالجملة فعلم الباطن الذي يدعون مضمونه الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر[4].

وأما ابن القيم فقال فيهم: ومن أشر طوائف المجوس الذين لا يقرون بصانع ولا معاد ولا نبوة ولا حلال ولا حرام الخرمية أصحاب بابك الخرمي وعلى مذهبهم طوائف القرامطة والإسماعيلية والنصيرية والدرزية وسائر العبيدية يسمون أنفسهم الفاطمية وهم من أكفر الكفار فكل هؤلاء يجمعهم هذا المذهب ويتفاوتون في التفصيل، فالمجوس شيوخ هؤلاء كلهم وأئمتهم وقدوتهم، وإن كان المجوس قد يتقيدون بأصل دينهم وشرائعهم، وهؤلاء لا يتقيدون بدين من ديانات العالم ولا بشريعة من الشرائع[5].

ونقل الشيخ محمد بن عبد الوهاب إجماع أهل العلم على كفر أئمة الإسماعيلية - العبيدية - وقال: إن بني عبيد لما أظهروا الشرك ومخالفة الشريعة وظهر منهم ما يدل على نفاقهم وشدة كفرهم أجمع أهل العلم على أنهم كفار يجب قتالهم وأن دارهم دار حرب ولذلك غزاهم المسلمون واستنقذوا

(1) المحلى لابن حزم (139/13).
(2) أصول الإسماعيلية (66/2).
(3) الاعتصام للشاطبي (253/1).
(4) مجموع الفتاوى (129/35 - 131، 133، 134، 135).
(5) إغاثة اللهفان لابن القيم (247/2 - 249).

ما بأيديهم من بلدان المسلمين[1].

هذه هي نماذج من أقوال أهل العلم قديماً وحديثاً وحكمهم.

2- المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعية الفاطمية العبيدية: كانت الدولة الفاطمية تسعى للسيطرة على العراق والمشرق ولذلك قامت بإرسال الدعوة إليها، فقد واصل الخلفاء الفاطميون جهودهم في نشر دعوتهم مستغلين الاضطراب الذي ساد بلاد العراق بسبب النزاع بين أمراء بني بويه على السلطة وثورات الجند، وتدخل قادتهم في تولية الأمراء وعزلهم فأرسل الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي الدعاة إلى بغداد سنة 425هـ، فاستجاب لهم كثير من الناس[2]، كما سير المستنصر بالله الفاطمي إلى قرواش بن المقلد - أمير الموصل - إعلاماً وخلعاً في عام 436هـ، فأرسل إليه الخليفة القائم يعاتبه فاعتذر له، ولبس السواد - شعار العباسيين - مرة أخرى ورجع عن دعوة المستنصر[3]، وازداد نشاط الدعاة في بلاد المشرق الإسلامي على عهد المستنصر بالله الفاطمي، فعهد إلى دعاته بالرحيل إلى فارس وخراسان وما وراء النهر وقد أشار المقريزي إلى ذلك بقوله: وكان المستنصر قد بث دعاته سرًّا إلى الآفاق يدعون إليه ويستميلون من تصل القدرة إلى استمالته. فدفع بجماعة من دعاته في خراسان إلى ما وراء النهر فلقيت الدعوة الفاطمية في بلاد الفرس تأييداً كبيراً فاستجاب لهم كثير من الناس، ولما وصل الخبر إلى بغراخان [4]، صاحب بلاد ما وراء النهر احتال على الدعاة حتى أوقع بهم وأنفذ برسالة إلى الخليفة القائم بأمر الله بالأمر، فأجيب بالشكر والثناء [5]ومن أشهر دعاة وفلاسفة المذهب الإسماعيلي الفاطمي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي وعرف أحياناً بالمؤيد فقط، ولكن اللقب الذي غلب عليه هو المؤيد في الدين يدل على ذلك أن الملك كاليجار البويهي أرسل إليه يقول: لشيخنا وظهيرنا ومعتمدنا المؤيد في الدين عصمة أمير المؤمنين أبي النصر أطال الله بقاءه وأدام عزه وتأييده[6] وكان هذا الرجل والده داعياً للمذهب الفاطمي بشيراز[7].

اتصل المؤيد بالسلطان أبي كاليجار البويهي، واستطاع بدهائه أن يكسب عطفه، وأن يظل في شيراز يتابع نشر المذهب الإسماعيلي ثم لم يلبث أن توثقت صلته بالسلطان البويهي حتى طمع في إدخاله في الدعوة الفاطمية، واستطاع المؤيد أن يؤثر فيه، فكتب إليه يقول: إني أسلمت نفسي ودِيني إليك، وإني راضٍ بجملة ما أنت عليه [8]، ودخل أبو كاليجار في الدعوة الفاطمية وأخذ يجتمع بالمؤيد مساء كل خميس للاستزادة من فهم المذهب الإسماعيلي، ولم يكتف المؤيد بنشر الدعوة في شيراز، بل سافر إلى

(1) مختصر سيرة الرسول ص 33.
(2) اتعاظ الحنفا (1819/2 للمقريزي.
(3) المصدر نفسه (193/2).
(4) هو بغراخان الثالث محمود بن يوسف - حاكم بلاد ما وراء النهر.
(5) الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق والمشرق ص 65.
(6) المجالس المؤيّدية، تحقيق وتعليق محمد عبد الغفّار ص 7.
(7) المصدر نفسه ص 7.
(8) السيرة المؤيدة ص 61.

الأهـواز وأدخـل فـي الأذان عبـارة - حـى علـى خيـر العمـل - وأمـر النـاس بإقامـة الخطبـة للمستنصـر الفاطمي[1]، ولكن لم تدم الخطبة على منابر الأهواز طـويلاً للخليفة الفـاطمي إذ أرسـل قاضـيها أبـو الحسـن عبد الوهاب بن منصور بن المشتري برسالة إلى الخليفة القائم بأمر الله يخبره بالأمر وأشار عليـه أن يعمـل على إيقاف الدعوة الفاطمية في بلاد فارس فأنفذ الخليفة وزيره أبا القاسم بن المسلمة - رئيس الرؤسـاء إلـى شيراز حيث التقى بالأمير كاليجار وسلمه رسالة الخليفـة التـي تضـمنت التهديد بالاستعانة بالسلاجقة إن لـم يقبض على المؤيد في الدين وإنفاذه مكبلاً بصـحبة رئيس الرؤسـاء [2]، إلـى بغداد ووقف النشـاط الفـاطمي في بلاده[3].

ولما علم المؤيد في الدين بمـا تضـمنته الاتصـالات بـين الخليفـة العباسـي والأمير البـويهي الـذي كان يؤازره في نشر دعوته في بلاده رأى أن يترك بلاد فارس بعد انصراف أبي كاليجـار عن تأييده وسار إلى الحلة ونزل بدار الأمير منصور بن الحسن وظل مقيماً هناك حتـى رأى أبـو كاليجـار الـذي كان يطمح في تولي السلطة فـي بغداد بعد وفـاة جـلال الدولـة، أن يعمـل علـى إبعـاد المؤيـد فـي الـدين لإرضاء الخليفة العباسي، فكتب إلى صـاحب الحلـة يخبره أن وجـود المؤيـد فـي بلـده فيـه خطـر علـى دولـة بني بويه طالباً إبعاده ويتجلى ذلك فيما جاء في رسالة أبي كاليجار إلى منصور بن الحسن: إنك من الشفقة على ملكنا ودولتنا بحيث لا تعتمد لأحد هوادة فيه وقد عرفت صورة أبي فلان - المؤيد في الـدين وهبـة الله الشيرازي -... وإننـا كـل يـوم فـي صـراع مـن جهـة الـديلم - الـذين اعتنـق كثيـر منـهم الـدعوة الفاطميـة فـي بـلاد فـارس والعـراق - باحتجاجـات باطلـة يتشـبثون بهـا ظـاهراً وهـو مغـزاهم وغرضـهم منهـا باطنـاً، ثـم إنـه قامـت رغبتنـا فـي بغداد وامتلاكهـا ولـيس يكـاد يـتم الغـرض فيـه إلا بالمجلس الخليفي الإمامي (مواقعة الخليفة القائم بأمر الله العباسي، إذا استقر به العالم أن هذا الإنسـان مقيم بفناء حضرتنا على جملته كان ذلك ردحاً في وجه ما تؤثر بلوغه وحاجزاً بيننا وبينـه وقد انتهـى إلينا معاودة الأهواز، فالله الله إن توجده سبيلاً إلى ذلك فإنه إن عاود وقعت فتنـة نصـلى بنارهـا صـليًا [4].

اضطر المؤيد في الدين إلى الرحيل عن الحلـة وأخذ فـي التنقل بين مـدن العراق فسـار إلـى الكوفـة، ثـم اتجه إلى الموصل حيث أقام فترة قصيرة عند قرواش بن المقلد - أمير بنـي عقيل - وأخيراً رحل إلـى مصـر سنة 438هـ[5]، بعد أن أعرض عنه الجميع تحت وطأة المعارضـة السنية وخوفاً مـن غضـب الخليفـة القـائم بأمر الله العباسي [6] وعلى الرغم من رحيل المؤيـد فـي الـدين إلـى مصـر، إلا أن جهوده فـي نشـر الـدعوة الفاطمية ببلاد العراق تركت آثاراً خطيرة علـى الخلافـة العباسـية فـي عهـد القـائم بـأمر الله، إذ انضـم إليهـا كثيـر مـن قـادة التـرك والـديلم وهـم الـذين يمثلـون عمـاد القـوة التـي تعتمـد عليهـا البـلاد فـي التصـدي لأعداء

(1) ديوان المؤيد في الدين ص 28، المجالس المؤيدية ص 9.
(2) سيرة المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ص 56.
(3) الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق والمشرق الإسلامي ص 66.
(4) سيرة المؤيد في الدين ص 73، 74.
(5) المصدر نفسه ص 74، 57.
(6) الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق والمشرق الإسلامي في عهد الخليفة القائم بأمر الله ص 67.

الخلافة فظلوا يشجعون الدعوة الفاطمية ويقربون إليهم أتباعها ومن الدروس والفوائد المهمة من قصة المؤيد الشيرازي:

- على مكانته وقدره في الدعوة الفاطمية إلا أنه قام بالدور التنفيذي لمخططات الدعوة في المشرق بنفسه وتحمل مخاطر ومتاعب ومشاق مع أن دعوته قائمة على الضلال والبدع والخرافات، ومن باب أولى أن يقوم بمثل هذا الجلد والتفاني أصحاب الدعوة الإسلامية الصحيحة السائرة على هدي النبي ρ وخلفائه الراشدين.

- تعاون فرق الشيعة فيما بينهم ومساندتهم لبعضهم وإيجاد قواسم مشتركة فيما بينهم تخدم تطلعاتهم وأهدافهم.

- على أهل السنة أن يتعاونوا فيما بينهم من أجل نشر دعوة الله في المشارق والمغارب ويستعلوا على حظوظ النفس والخلافات الجزئية التي تعرقل مسيرة النهوض.

- أهمية التهديد واستخدام لغة القوة في التضييق على هبة الله الشيرازي ويظهر ذلك عندما هدّد الخليفة العباسي الأمير كاليجار البويهي بالاستعانة بالسلاجقة إذا لم يقبض على هبة الله الشيرازي وإرساله مكبلاً إلى بغداد ووقف النشاط الفاطمي في بلاده.

- خطورة التهاون بالحرب الثقافية والفكرية والعقائدية التي يشنها الباطنيون ضد أهل السنة والجماعة فلا بد من المواجهة المدروسة للقضاء على مشروعهم الخبيث الذي يستهدف إضلال الناس وإخراجهم عن دين الله ومواجهة الفتنة في بدايتها أسهل بكثير من بعد تغلغلها.

3- فتنة البساسيري في العراق: 450هـ: كان البساسيري من القواد المقربين من الخليفة العباسي إلا أن الدعوة الفاطمية تغلغلت بين الناس وأثرت في بعض الأعيان والقواد وممن تأثر بهذه الدعوة قائد قواد الجند التركي أبو الحارث أرسلان البساسيري بدعوة هبة الله الشيرازي وأصبح يكاتب الفاطميين ويعمل على قلب نظام الحكم في بغداد لصالح الدولة الفاطمية وتدهورت العلاقات بين الخلافة والبساسيري حين علم البساسيري بالاتصالات السرية التي كانت تجري بين الخليفة القائم بأمر الله والسلاجقة وبخاصة مكاتبة الخليفة لهم بالمسير إلى العراق، فترك البساسيري بغداد وسار إلى واسط، فانتهز الوزير رئيس الرؤساء الفرصة وأخذ يوغر صدر الخليفة القائم بأمر الله من ناحية البساسيري وأخبره بأن البساسيري يكاتب أعداء الخلافة ويعمل على خلعه من الخلافة وفي الوقت نفسه حرض الأتراك والعامة على الاعتداء على أملاك البساسيري في بغداد بعدما ظهرت ميوله الشيعية وظهرت نواياه السيئة للخلافة العباسية وأهل السنة فقاموا بنهب داره والاستيلاء على ممتلكاته سنة 447هـ، وفضلاً عن ذلك، أخذ رئيس الرؤساء يؤلب الأتراك البغداديين على قائدهم البساسيري واتهامه بأنه المتسبب في نقص رواتبهم وسوء أحوالهم فسار جماعة منهم إلى الخليفة القائم بأمر الله واستأذنوه في نهب دور البساسيري فأذن لهم في ذلك [1]، فلما تأكد من صحة ما نسب إليه أذن لهم في ذلك خاصة بعد أن قدم إليه طائفة من الأتراك من أصحاب البساسيري بواسط وأخبروه بما عزم من

(1) المختصر في أخبار البشر (182/2).

نهب دار الخلافة[1]والقبض على الخليفة.

إن فتنة البساسيري تعطيناً درساً بليغاً في أهمية الاعتناء بالقادة العسكريين والوزراء السياسيين وأهل الفكر والرأي العام وتربيتهم على هدي القرآن الكريم وسيرة الرسول ρ وفقه الخلافة الراشدة حتى لا يقعوا ضحايا للدعوات المنحرفة والمناهج الضالة والعقائد الفاسدة.

أ- التواصل بين البساسيري والمؤيد هبة الله الشيرازي: اتخذ البساسيري من الرحبة مركزاً للاتصالات مع الفاطميين، ذلك أن المؤيد في الدين كان يتابع أحداث العراق، وبخاصة أنه وقف على المكاتبات التي تبودلت بين الخليفة القائم بأمر الله والسلطان السلجوقي وأدرك مدى خطورتها على الخلافة الفاطمية، فعول على الاستفادة من الموقف المتدهور بين الخلافة والبساسيري وأصحابه، فأنفذ إليهم كتباً تضمنت تأييد الخليفة الفاطمي وحكومته لهم واستعدادهم لمدهم بالسلاح والمال، فوصلت إليهم هذه الكتب قبيل رحيلهم إلى واسط، فزادت من ثقتهم بأنفسهم وقويت شوكتهم ورد البساسيري على مكاتبات الفاطميين برسالة بعث بها إلى المؤيد في الدين شكره فيها على اهتمامه بحركتهم وتأييدهم له ولأتباعه والتمس منه الإمداد السريع بالمال والخيل والسلاح لإظهار الدعوة الفاطمية ببلاد العراق: فإن أخذتم بأيدينا، أخذنا لكم البلاد وأن قلدتمونا نجاد نصركم وإنجادكم فتحنا من جهتكم الأغوار والأنجاد [2].

وأظهر الخليفة المستنصر بالله الفاطمي اهتماماً كبيراً برسالة البساسيري وعمل على تدبير الإمدادات اللازمة لإنجاح حركته على الرغم مما كانت تعانيه مصر من غلاء وأزمة اقتصادية [3]، فلما أتم إعداد الأموال والخلع والسلاح، عهد إلى المؤيد في الدين بحملها إلى البساسيري، فسار على رأس عدد من الرجال ومعهم خمسمائة ألف دينار ومن الثياب ما قيمته مثل ذلك وخمسمائة فرس وعشرة آلاف قوس ومن الرماح والنشاب شيء كبير[4].

ب- الجهود التي بذلها المؤيد هبة الله الشيرازي لدعم فتنة البساسيري: لما وصل المؤيد في الدين إلى دمشق وهو في طريقه إلى الرحبة، رأى أن يستعين بمثال بن صالح بن مرداس - صاحب حلب - لإمداده بالرجال ولتأمين وصول الإمدادات الفاطمية إلى البساسيري، وأصحابه فكتب إليه بالمهمة التي عهد إليه بها، ثم ما لبث أن التقى المؤيد بمثال بن صالح في الروستان [5]. فسلم المؤيد في الدين الأحمال إلى الأمير ثمال ليكون في حمايته[6]، ثم سار إلى معرة النعمان حيث وفد إليهما فريق من أصحاب البساسيري لاصطحابهم إلى الرحبة، وخلال ذلك تلقى المؤيد في الدين خطاباً من نصر الدولة بن مروان - صاحب ديار بكر وميافارقين يعلن فيه خلع طاعة السلاجقة والدخول في طاعة الفاطميين معتذراً عن

(1) الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق ص 69.
(2) ديوان المؤيد في الدين ص 41 - 42.
(3) الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق والمشرق ص 70.
(4) النجوم الزاهرة (12/5).
(5) الروستان: موضع يلي حمص على جسر نهر العاصي.
(6) سيرة المؤيد في الدين ص 107، 108.

إقامة الخطبة للسلاجقة على منابر بلاده خوفاً من بطشهم [1]وسار المؤيد هبة الله الشيرازي بصحبته الأمير ثمال بن مرداس على رأس جنده قاصداً الرحبة، فلما اقترب منها خرج لاستقباله البساسيري على رأس جيشه فالتقى بهم على بعد مرحلتين من المدينة وأظهر أسمى آيات الشكر والترحيب بمبعوث الخليفة الفاطمي، وقام المؤيد من جانبه بتوزيع الخلع الفاطمية على البساسيري وأصحابه ومنحهم الأموال وأخذ البيعة منهم بالطاعة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي[2] ثم قام المؤيد وتقدم إلى أبي الحارث البساسيري وخلع عليه الخلعة الخاصة التي أرسلها الخليفة الفاطمي إليه وقرأ عهده [3]، ولم يكتف المؤيد هبة الله الشيرازي بما حققته الدعوة الفاطمية من انتصارات كبيرة في بلاد العراق تجلت في انضمام كل من البساسيري ونصر الدولة بن مروان، وعدد كبير من القادة والجند والديلم والأتراك، بل أخذ في العمل على جذب أمراء العراق إلى دعوته، فكتب إلى دبيس بن مزيد - أمير الحلة - يطلب منه اللقاء في الرعية، فلما التقى به هناك، استطاع أن يستميله للدعوة الفاطمية، وطلب منه الانضمام إلى البساسيري في مسيره إلى العراق، وذلك بعد أن قلده رئاسة غرب العراق وجعل له حكم ما يفتحه من البلاد بعهد من الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ولقبه " الأمير سلطان ملوك العرب، سيف الخلافة، صفي أمير المؤمنين " [4].

كان لنجاح المؤيد في الدين ضم أمراء الأطراف إلى جانب القائد التركي أبي الحارث البساسيري أثر كبير في انتصاره على قوات السلاجقة ومن انضم إليهم من أصحاب قريش بن بدران - صاحب الموصل - في موقعة سنجار سنة 448هـ [5]، والتي كان من نتائجها انحياز قريش بن بدران إلى جانب البساسيري وإقامة الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي على منابر الموصل، كما انضم محمود بن الأخرم - أمير خفاجة - إلى الدعوة الفاطمية وأقام الخطبة على منابر الكوفة للخليفة الفاطمي [6]، أما أمير واسط علاء الدين أبو الغنائم بن المحلبان فقد خلع طاعة الخليفة القائم بأمر الله وخطب للمستنصر بالله الفاطمي، وأمر أن تصبغ مساجد واسط باللون الأبيض - شعار الفاطميين [7]، وفضلاً عن ذلك ضرب النقوذ باسم الخليفة الفاطمي في واسط، مما ترتب عليه إصدار الخليفة القائم بأمر الله محضراً آخراً بالطعن في نسب الفاطميين سنة 448هـ[8]، محاولاً بذلك التصدي للدعوة الفاطمية وعلى الرغم من الانتصارات التي حققتها الدعوة الفاطمية في مدن العراق فإن جهود عميد الملك الكندري - وزير السلاجقة في العمل على تفريق شمل أمراء العرب، أدت إلى اختلاف كلمة هؤلاء الأمراء وعدولهم عن معاونة البساسيري، بل واضطر البساسيري وأتباعه إلى العودة إلى الرحبة، ثم ما لبث أن سار نحو حلب حيث التقى بالمؤيد في بالس - على مقربة من حلب[9]، وعهد المؤيد هبة الله الشيرازي إلى البساسيري وقريش بن بدران بمواصلة نشر

(1) الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق ص 70.
(2) ديوان المؤيد في الدين ص 42، 43.
(3) سيرة المؤيد في الدين ص 121 - 124.
(4) الإشارة إلى من نال الوزارة ص 44.
(5) الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق والمشرق ص 72.
(6) المصدر نفسه ص 72.
(7) المصدر نفسه ص 72.
(8) المصدر نفسه 72.
(9) الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق ص 72.

النفوذ الفاطمي في بلاد العراق، فطلب إليهما العودة إلى الرحبة على أن يتجه قريش إلى الموصل لاستعادتها بعد أن علم بخروج إبراهيم ينال عنها، ثم سار إلى مصر حتى يتسنى له إرسال الإمدادات إليهما [1]، فقام البساسيري وقريش بن بدران بالمسير إلى الموصل، وتمكنا من دخولهما والاستيلاء عليها سنة 450هـ[2]، ولما علم السلطان طغرل بك بانتزاع الموصل منه سار إليها بصحبة أخيه إبراهيم ينال، فلما اقتربا منها فارقها كل من البساسيري وقريش بن بدران، غير أنه سار في أثرهما فاتحه إلى نصيبين ليتتبع آثارهم ويخرجهم من البلاد الذين يستولون عليها، وبينما هو في طريقه انصرف عنه أخوه ينال وسار إلى همذان بعد أن استولى على أموال أخيه فوصلها في أواخر رمضان سنة 450هـ مما اضطر طغرل بك إلى تتبع أثره للقضاء على فتنته فتم له ذلك في جمادى الآخرة من العام نفسه [3].

ومن الدروس في هذا المجال أن من يخن ثم يعفَ عنه علينا أن نجرده من مصادر القوة ومراكز القيادة لإمكانية الغدر من جديد وهذا ما فعله إبراهيم ينال حيث خرج مرّة ثانية وأشغل طغرل بك واستفاد من هذا الخروج الشيعة الفاطميون العبيديون.

ج- استيلاء البساسيري على بغداد وإقامة الخطبة فيها للفاطميين: أدى خروج إبراهيم ينال على طاعة أخيه ومسير طغرل بك في أثره لمحاربته إلى خلو بغداد من الحامية السلجوقية مما أتاح للبساسيري الفرصة للاستيلاء على حاضرة الخلافة العباسية وإقامة الخطبة فيها للفاطميين فزحف إليها على رأس أربعمائة فارس، حاملاً الرايات الفاطمية التي طرزت باسم " الإمام المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين" [4]، وتبعه خليفة قريش بن بدران على رأس مائتي فارس من بني عقيل، وأقيمت الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي بجامع المنصور في يوم الجمعة الثالث عشر من ذي القعدة سنة 450هـ [5]وزيد في الأذان: حي على خير العمل [6]، وانقطعت دولة بني العباس من بغداد وأخرج الخليفة وحُمل إلى الأنبار وحبس بالحديثة [7]، عند صاحبها مهارش بن مجلي العقيلي، فتولى خدمة الخليفة بنفسه وكان أحد وجوه بني عقيل، وخطب لبني عبيد - الفاطميين، في بغداد أربعين جمعة في ولاية المستنصر [8]. وحاول البساسيري نقض الاتفاق الذي عقده مع قريش بن بدران وعزم على أخذ الخليفة العباسي وترحيله إلى مصر، إلا أن قريشاً تصدى لهذه المحاولة وعهد إلى ابن عمه الأمير محيي الدين بن مهارش العقيلي - صاحب حديثة بالتحفظ على الخليفة وتأمين حياته، بعد أن استنجد به الخليفة قائلاً: عرفت ما استقر العزم عليه من إبعادي عنك وإخراجي من يديك، وما سلمت نفسي إليك إلا لما أعطيتني الذمام الذي يلزمك الوفاء به، وقد دخلت إليك ووجب لي ذمام عليك، فالله الله في نفسي،

(1) سيرة المؤيد في الدين ص 176.
(2) الكامل في التاريخ نقلاً عن الأحوال السياسية والدينية ص 73.
(3) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (202/8).
(4) الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق ص 73.
(5) تاريخ بغداد (400/9 - 401).
(6) أخبار الدولة المنقطعة للأزدي (427/2).
(7) البداية والنهاية (757/15).
(8) أخبار الدول المنقطعة للأزدي (430/3).

فمتى سلمتني أهلكتني وضيعتني ما ذلك معروف في العرب [1]. وعلى الرغم من ذلك فلم يسمح البساسيري للخليفة القائم بأمر الله بالرحيل إلى الحديثة إلا بعد أن أرغمه على كتابة اعتراف بعدم أحقية بني العباس في الخلافة الإسلامية مع وجود بني فاطمة الزهراء عليها السلام [2]ولم يكتف البساسيري بذلك بل استولى على ثوب الخليفة وعمامته وشباكه[3]، وأنفذها إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمي.

أما عن أقارب الخليفة، فقد أذكى البساسيري عليهم العيون وشدد في البحث عنهم، إلا أنهم صاروا يتنقلون من مسجد إلى آخر هرباً منه ثم لجأوا إلى أبي الغنائم بن المحلبان[4].

د- مقتل رئيس الرؤساء، أبو القاسم بن المسلمة والانتقام من أهالي بغداد: كان البساسيري قد شرع في استخدام طائفة من العوام ودفع إليهم السلاح من دار المملكة، وكان البساسيري قد جمع العيّارين وأطمعهم في نهب دار الخلافة ونهب أهل الكرخ - الشيعة - دور أهل السنة بباب البصرة، ونهبت دار قاضي القضاة الدَّمغانيَّ، وهلك أكثر السَّجلاَّت والكتب الحكيمة، وبيعت للعطارين، ونُهبت دور المتعلقين بالخليفة، وأعادت الرَّوافض الأذان بحيَّ على خير العمل، وأُذن به في سائر جوامع بغداد في الجُمُعات والجماعات، وخطب ببغداد وضربت له السَّكةُ على الذهب والفضة وحُوصرت دار الخلافة فدافع الوزير أبو القاسم بن المسلمة المُلقَّبِ برئيس الرؤساء بمن معه من المستخدمين دونها، فلم يُفد ذلك، فركب الخليفة بالسَّواد والبُردة على كتفيه، وعلى رأسه اللواء وبيده سيف مُصلت، وحوله زمرة من الهاشميين والجواري حاسرات عن وجُوههن، ناشرات شعورهن، معهن المصاحف على رُءُوس الرماح وبين يديه الخدم بالسيوف المُسَلَلةِ، ثم إن الخليفة أخذ ذِماماً من أمير العرب قريش بن بدران لنفسه وأهله ووزيره ابن المُسلمة فأمَّنه على ذلك كلِّه، وأنزله في خيمة، فلامه البساسيري على ذلك، وقال: قد علمت ما كان وقع الاتفاق بيني وبينك من أنك لا تستبد برأي دوني، ولا أنا دونك، ومهما ملكنا فبيني وبينك، واستحضر البساسيري أبا القاسم بن مسلمة فوبّخه ولامه لوماً شديداً، ثم ضربه ضرباً مبرحاً، واعتقله مهاناً عنده، ونهبت العامة دار الخلافة، فلا يُحصَى ما أخذوا منها من الجواهر والنَّفائس والدَّيباج والأثاث والثياب، وغير ذلك مما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ[5]وفي يوم عيد الأضحى من سنة 450هـ ألبس البساسيري الخطباء والمؤذنَّين البياض، وعليه هو وأصحابه كذلك، وعلى رأسه الألوية المستنصرية والمطارد المصرية، وخطب للمستنصر الفاطمي صاحب مصر، والرَّوافض في غاية السرور والأذان في سائر بلاد العراق بحيَّ على خير العمل، وانتقم البساسيريُّ من أعيان أهل بغداد انتقاماً عظيماً، وغرَّق خلقا ممّن كان يعاديه، وبسط على آخرين الأرزاق والعطايا ولما كان يوم الاثنين ليلتين بقيتا من ذي الحجة أُحضر إلى بين يديه الوزير أبو القاسم بن المسلمة المُلقَّبُ برئيس الوزراء وعليه جُبَّةُ صوف، وطرطور من لبد أحمر وفي رقبته مِخنقة من

(1) المختصر في أخبار البشر (177/2 - 178).
(2) الخطط للمقريزي (439/1).
(3) الشباك: هو الشرفة التي يجلس فيها الخليفة ويتوكأ بيديه على حافته.
(4) الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق ص 75.
(5) البداية والنهاية (756/15، 757).

جلود كالتعاويذ، فأُركب جملاً [1]، وطيف به في البلد وخلفه من يصفعه بقطعة من جلد، وحين اجتاز بالكرخ نثروا عليه خُلْقان المداسات، وبصقوا في وجهه ولعنوه وسبُّوه وهذه هي عادتهم عندما يتمكنون من مخالفيهم في كل زمان ومكان، وأُوقف بإزاء دار الخلافة، وهو في ذلك يتلو قولـه تعالى: {**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**} [آل عمران: 16].

فألبس جلد ثور بقرنيه وعُلِّق بكلوّب في شِدْقيه، ورفع إلى الخشبة حيّاً، فجعل يضطرب إلى آخر النهار، فمات رحمه الله، وكان آخر كلامه أن قال: الحمد لله الذي أحياني سعيداً وأماتني شهيداً [2]. وكان هذا الوزير قد سمع الحديث من أبي أحمد الفَرَضيَّ وغيره، ثم كان أحد المعَدَّلين، ثم استكتبه الخليفة القائم بأمر الله واستوزره ولقَّبه رئيس الرؤساء، شرف الوزراء، جمال الورى، وكان متضلعاً بعلوم كثيرة مع سداد رأي ووفور عقل، وقد مكث في الوزارة ثنتي عشرة سنة وشهراً، ولما قتل كان لـه من العمر ثنتان وخمسون سنة وخمسة أشهر [3].

4- القائم بأمر الله وعبادته ودعاؤه الذي علق على الكعبة: سار الخليفة القائم بأمر الله إلى محل اعتقاله إلى حديثة عانة فكان عند مهارش أميرها حولاً كاملاً وليس معه أحد من أهله، فحكي عن الخليفة القائم بأمر الله أنه قال: لما كنت بحديثة عانة قمت ليلة إلى الصلاة، فوجدت في قلبي حلاوة المناجاة، ثم دعوت الله بما سنح لي، ثم قلت: اللهم أعِذْني على وطني، واجمع بيني وبين أهلي وولدي ويَسَّر اجتماعنا، وأعد روض الأُنس زاهراً، وربع القُرب عامراً، فقد قلّ العزاء وبرح الخفاءُ، قال: فسمعت قائلاً على شاطئ الفرات يقول : نعم نعم فقلت: هذا رجل يخاطب آخر، ثم أخذت في السؤال والابتهال فسمعت ذلك الصائح يقول: إلى الحول إلى الحول، فعلمت أنه هاتف أنطقه الله بما جرى الأمر عليه. وكان كذلك، خرج من داره من ذي القعدة من هذه السنة، ورجع إليها في ذي القعدة من السنة المقبلة، وقد قال الخليفة القائم في مقامه بالحديثة شعراً يذكر فيه حاله، فمنه قولـه:

خايـــت طنـــوني فـــيمن كنـــت آمُلـــه ::: ولـم يَجُـلّ ذكـر مـن واليـت فـي خلـدي
تعلّمـــوا مـــن صَـــروف الـــدهر كلُّهُـــم ::: فمـــا أرَ أحـــداً يحنـــو علـــى أحـــد [4]

ومن ذلك أيضاً قولـه:

مـــا لـــي مـــن الأيـــام إلا موعِـــدٌ ::: فمتـــى أرَى ظفـــراً بـــذاك الموعـــد
يـــومي يُمُـــرُّ وكلمـــا قضَّـــيتُه ::: علَّلْـــتُ نفســـي بالحـــديث إلـــى غـــد
أحيـــا بنفســـي تســـتريح إلـــى المنُـــى ::: وعلـــى مطامعهـــا تـــروح وتعتِـــدي [5]

أ- دعاء القائم بأمر الله الذي علق على الكعبة المشرفة: أرسل الخليفة القائم بأمر الله هذا

(1) البداية والنهاية (759/15).
(2) المصدر نفسه (759/15).
(3) البداية والنهاية (763/15).
(4) البداية والنهاية (758/15).
(5) المصدر نفسه (758/15).

الدعاء مع بدوي وأمره أن يعلقه على الكعبة وهو في أسره وإليك نص الدعاء :

إلى الله العظيم من عبدك المسكين، اللهم إنك العالم بالسرائر المحيط بمكنونات الضمائر، اللهم إنك غني بعلمك واطلاعك على أمور خلقك عن إعلامي، بما أن فيه عبد من عبيدك قد كفر بنعمتك، وما شكرها، وألقى العواقب وما ذكرها، أطغاه حلمك، وتجبر بأناتك حتى تعدى علينا بغياً، وأساء إلينا عتواً وعدواناً. اللهم قل الناصرون لنا، واغتر الظالم، وأنت المطلع العالم، والمنصف الحاكم، بك نعتز عليه، وإليك نهرب من يديه، فقد تعزز علينا بالمخلوقين، ونحن نعتز بك يا رب العالمين. اللهم إنا حاكمناه إليك، وتوكلنا في إنصافنا منه عليك، وقد رفعت ظلامتي إلى حرمك ووثقت في كشفها بكرمك، فاحكم بيني وبينه وأنت خير الحاكمين، وأرنا منه ما نرتجيه فقد أخذته العزة بالإثم، اللهّم فأسلبه عزه، ومكنا بقدرتك من ناصيته يا أرحم الراحمين. فحملها البدوي وعلقت على باب الكعبة. فحُسب ذلك اليوم فوُجد أن البساسيري قتل وجيء برأسه إلى بغداد بعد سبعة أيام من التاريخ [1]. فقد نفع الله القائم بأمر الله بهذا الدعاء فكذلك ينبغي لكل من قُهر وبُغي عليه أن يستغيث بالله تعالى، وإن صَبر وغفر فإن في الله كفاية ووقاية [2].

ب- رسالة الخليفة القائم بأمر الله من أسره إلى طغرل بك: أرسل الخليفة من أسره رسالة إلى السلطان طغرل بك جاء فيها: بحق الله أدرك الإسلام فقد ساد العدو اللعين وأخذ ينشر مذهب القرامطة[3]، فلما فرغ السلطان طغرل من تمرد أخيه إبراهيم ينّال وأسره وقتله، وتمكن من أمره وطابت نفسه واستقر حاله، ولم يبق له في تلك البلاد منازع كتب إلى قريش بن بدران، من الأعراب، يأمره بأن يعاد الخليفة إلى داره، على ما كان عليه، وتوعّده على ترك ذلك بأساً شديداً فكتب إليه قريش يتلطفُ به ويسالمه، ويقول: أنا معك على البساسيريَّ بكلَّ ما أقدر عليه، حتى يمكن الله منه، ولكن أخشى أن تَسَّرعَ في أمر يكون فيه على الخليفة مفسدة، أو يبدر إليه أحد بأذيةٍ، ولكنَّي سأعمل لما أمرتني بكل ما يمُكنني، وأمر بردَّ امرأة الخليفة الخاتون المعظمةَّ أرسلان خاتون إلى دارها وقرارها، ثم راسل البساسيريَّ وأشار إليه بعود الخليفة إلى داره، وخوّفه من جهة الملك طغُرل بك وقال له فيما قال: إنك دعوتنا إلى طاعة المستنصر صاحب مصر وبيننا وبينه ستمائة فرسخ، ولم يأتنا من جهته رسول ولا أحد، ولم يفكر في شيء ممّا أرسلنا إليه، وهذا الملك من ورائنا بالمرصاد[4]، ومما جاء في رسالة طغرل بك إلى الأمير علم الدين أبي المعالي قريش بن بدران:... ولكل مُجْترم في العراق عفونا وأمننا مما بدر منه إلا البساسيريَّ فإنه لا عهد له ولا أمان منّا، وهو موكول على الشيطان وتساويله فقد ارتكب في دين الله عظيماً، وهو إن شاء الله مأخوذ حيث وجد ومُعذَّب على ما عمل، فقد سعى في دماء خلق كثير سوء دخيلته، ودلَّت أفعاله على سوء عقيدته.

وكتب في رمضان سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، وبعث بهذا الكتاب مع رسولين من أهل العمل

(1) أخبار الدول المتقطعة (430/2، 431).
(2) سير أعلام النبلاء (307/18).
(3) تطورات الأحداث السياسية بين العباسيين والفاطميين ص 177.
(4) البداية والنهاية (766/15).

وبعث معهما بتحف عظيمة للخليفة وأمرهما أن يخدما الخليفة نيابة عنه، جزاه الله عن الإسلام خيراً، ولما وصل الكتاب إلى قريش بن بدران، استعلم أخبار الملك طغرل بك من الرسل وغيرهم، فإذا معه جنود عظيمة، فخاف من ذلك خوفاً شديداً، وبعث إلى البريّة فأمر بحفر أماكن للماء وتجهيز علوفات كثيرة إلى هناك ونفَّذ الكتاب والأخبار إلى البساسيريَّ، فانزعج لذلك البساسيري، وخارت قوته وضعف أمره، وبعث إلى أهله فنقلهم عن بغداد وأرصد له إقامات عظيمة بواسط وجعلها دار مقرّته، ووافق على عود الخليفة إلى بغداد، ولكن اشترط شروطاً كثيرة لتُذهب خجله ولما انتقل أهل البساسيريَّ من بغداد وصَحِبَتهم أهل الكرخ والروافض، وانحدروا من دجلة إلى واسط كان خروجهم عن بغداد في سادس ذي القعدة من هذه السنة وفي مثله من العام الماضي دخلوا بغداد، وعند ذلك ثار الهاشميون وأهل السنة من باب البصرة إلى الكرخ، فنهبوه وأحرقوا منه محالَّ كثيرة جداً انتقاماً لما فعل الروافض فيهم، واحترق من جملة ذلك دار العلم التي وقفها الوزير أردشير من مدة سبعين سنة وفيها من الكتب شيء كثير، وكان من جملة ما احترق درب الزعفران، وفيه ألف ومائتا دار لكل دار منها قيمة جليلة عظيمة، وترحَّل قريش بن بدران إلى أرض الموصل وبعث إلى حديثة عانة يقول لأميرها مُهارِش بن مُجَليَّ الذي سلمَّ إليه الخليفة: المصلحة تقتضي أن الخليفة تُحوَّله إليَّ حتى نستأمن لأنفسنا بسببه، ولا تُسلمه حتى تستأمن لنا وتأخذ أمانا في يدك دون يَدِي، فامتنع عليه مُهارشُ وقال: قد غرّني البساسيري، ووعدني بأشياء فلم أرها، ولست بمرسله، إليك أبداً، وله في عنقي أيمان كثيرة لا أغدرها. وكان مُهارِشٌ رجلاً صالحاً ثقة أميناً رحمه الله، فقال للخليفة: من المصلحة أن نسير إلى بلد بدر بن مهلهل ونظرنا لأنفسنا، فإنا نخشى من البساسيري أن يأتينا فيحضرنا. فقال له الخليفة: افعل ما فيه المصلحة. فسار في الحادي عشر من ذي القعدة إلى أن حصلا بقلعة تَلَّ عُكْبَرَا فلقيته رسل السلطان طغرل بك بالهدايا والتُّحف التي كان أنفذها إليه وهو متشوق إليه كثيراً [1].

وجاء في رواية: أن الإمام القائم رأى - في الليلة التي أطلق في غدها - رسول الله ρ وهو يقول له: لا تأكل الطعام الذي يقرب إليك في غد فإنه مسموم، وقد قرب خلاصك. قال: فأصبح، وقُدِّم إليه دجاج مسموم، فامتنع من الأكل، وأطلق في عصر ذلك اليوم، ورُدَّ إلى بغداد [2].

ج- دخول طغرل بك بغداد ولقاؤه بالخليفة القائم بأمر الله: جاءت الأخبار بأن السلطان طغرل بك قد دخل بغداد وكان يوماً مشهوداً، غير أن الجيش نهبوا البلد سوى دار الخلافة وصُودِر خلق كثير من التجار، وأخذت منهم أموال كثيرة، وشرعوا في عمارة دار المُلك وأرسل السلطان إلى الخليفة مراكب كثيرة من أنواع الخيول وغيرها وسُرادق عظيمة وملابس سَنيّةً، وما يليق بالخليفة في السفر، أرسل ذلك مع الوزير عميد الملك الكندريَّ ولما انتهوا إليه أرسلوا بتلك الآلات قبل أن يصلوا إليه، وقال لمن حوله: اضربوا السُّرادِق وليلبس الخليفة ما يليق به، ثم نجيءُ نحن فنستأذن عليه فلا يأذن لنا إلا بعد ساعة طويلة فلما دخل الوزير ومن معه قبَّلوا الأرض وأخبروه سرور السلطان بما حصل من العود إلى بغداد واشتياقه إليه جداً وأخبروا مُهارِشاً بشكر السلطان له ونيته له بما ينبغي لمثله من الإكرام، وكتب عميد الملك كتاباً

(1) البداية والنهاية(769/15).
(2) أخبار الدول المنقطعة (431/2).

إلى السلطان يعلمه بصفة ما جرى الأمرُ عليه، وأحَبَّ أن يأخذ خطَّ الخليفة في أعلى الكتاب ليكون أقّر لعين السلطان فلم يكن عند الخليفة دواة وأحضر الوزير دَواته، ومعها سيف، وقال هذه خدمة السيف والقلم، فأعجب الخليفة ذلك، وترَحَّلوا من منزلهم ذلك بعد يومين، فلما وصلوا إلى النهّروان خرج السلطان طغرل بك من بغداد لتلقيَّه، فلما انتهى إلى السرادق قبَّل الأرض بين يديه فأخذها الملك فقبلها، ثم جلس عليها كما أشار أمير المؤمنين، وقدّم إلى الخليفة الحبل الياقوت الأحمر الذي كان لبني بُوَيه فوضعه بين يدي الخليفة، وأخرج اثنتي عشرة حبَّة من لؤلؤ كبار، وقال: أرسلان خاتون - يعنى زوجة الخليفة تخدم وتسأل أن تُسبَّحَ بهذه السُّبحة وجعل يعتذر عن تأخره عن الحضرة بسبب عصيان أخيه إبراهيم: فقتلته واتَّفق موت أخي الأكبر داود فاشتغلت بترتيب أولاده من بعده، وكنت عزمت على أن أصمُدَ إلى الحديثة، لأصون المهجة الشريفة، ولكن لما بلغني، بحمد الله، أمر مولاي أمير المؤمنين الخليفة فرحت بذلك، وأنا شاكر لمهارش بما كان منه من خدمة أمير المؤمنين، وأنا إن شاء الله تعالى أمضي وراء هذا الكلب - البساسيريَّ - وأقتنصه، وأعود إلى الشام، وأفعل بصاحب مصر ما ينبغي أن يجازى به من سوء المقابلة بما كان من فعل اليساسيري هاهنا، فدعا له الخليفة وشكره على ذلك، كل ذلك يترجمه عميد الملك بين الخليفة والملك طغرل بك، وأعطى الخليفة للملك سيفاً كان معه، لم يبق معه من أمور الخلافة سواه، واستأذن الملك لبقية الأتراك أن يخدموا الخليفة، فرفعت الأستار من جوانب الخَرْكاه، فلما شاهد الأتراك الخليفة قبَّلوا الأرض ثم دخل بغداد يوم الاثنين لخمس بقين من ذي القعدة وكان ذلك يوماً مشهوداً، الجيش كله معه، والقضاة والأعيان بين يديه، والملك طغرل بك أخذ بلجام بغلته، حتى وصل على باب الحجرة، ولما وصل الخليفة إلى دار مملكته، ومقرَّ خلافته أستأذنه السلطان طغرل بك في الخروج وراء البساسيريَّ، فأذن له وكان قد عزم أن يمضي معه فقال: يا أمير المؤمنين، أنا أكفيك ذلك إن شاء الله وأطلق الملك لمهارش عشرة آلاف دينار فلم يرضَ [1].

د- مقتل البساسيري: شرع السلطان طغرل بك في ترتيب الجيوش للمسير وراء البساسيري، فأرسل جيشاً من ناحية الكوفة ليمنعوه من الدخول إلى الشام، وخرج هو في التاسع والعشرين من الشهر في بقية الجيش وأما البساسيري فإنه مقيم بواسط في جمع غلاًّت وتمور يُهيِّئها لقتال أهل بغداد ومن فيها من الغُزَّ، وعنده أن الملك طغرل بك ومن معه ليسوا بشيء يخاف منه، وذلك لما يُريده الله تعالى من إهلاكه على يَدى الملك طغرل بك، جزاه الله عن الإسلام خيراً [2]ولما سار السلطان نحوه وصلت إليه السَّرية الأولى فلقوه بأرض واسط، ومعه ابن مزيد، فاقتتلوا هنالك، وانهزم أصحابه، ونجا البساسيري بنفسه على فرس فتبعه بعض الغلمان، فرمى فرسه بُنشابة فألقته إلى الأرض، فجاء الغلام، فضربه على وجهه، ولم يعرفه، وأسره واحد منهم يقال له : كُمُشتكتين، وحزّ رأسه وحمله إلى السلطان، وأخذت الأتراك من جيش البساسيري من الأموال ما عجزوا عن حمله ولما وصل الرأس إلى السلطان أمر أن يذهب به إلى بغداد، وأن يرفع على قناة، وأن يطاف به في المحّالَّ والدّبادب

(1) البداية والنهاية (771/15).
(2) المصدر نفسه (771/15).

والبُوقات والنفاطون معه، وأن يخرج الناس والنساء للفرجة عليه فُفعل ذلك [1]، كان البساسيري مقدماً عند الخليفة القائم بأمر الله، لا يقطع أمراً دونه وخطب لـه على منابر العراق كلها، ثم طغا وبغى وتمرد وعتا وخرج على الخليفة، بل وعلى المسلمين، ودعا إلى خلافة الفاطميين، فتم لـه ما رامه من الأمل الفاسد واستدرج، ثم كان أخذه في هذه السنة [2]، 451هـ، وقد كان مع البساسيري خلق من أهل بغداد خرجوا معه، ظانين أنه سيعود إليها، محبة فيه، فهلكوا ونهبت أموالهم كلها، ولم ينج من أصحابه إلا القليل [3].

هـ ـ محاربة السلاجقة للدعوة الفاطمية العبيدية: أدرك السلاجقة الخطر الذي يتهددهم من وراء انتشار الدعوة الفاطمية في بلدان الخلافة العباسية؛ لذلك اتبعوا سياسة حكيمة بعد أن قبضوا على زمام الأمور في بغداد تتمثل في مناهضة الدعوة الفاطمية[4]، ودعاتها بالحزم والشدة، فتعقبوا دعاة الإسماعيلية الذين قاموا بنشر الدعوة الفاطمية في بلاد فارس ـ كما قاموا بإقصاء الموظفين المتشيعين للمذهب الإسماعيلي على دواوين الحكومة والوظائف الدينية وعينوا من أهل السنة بدلاً منهم، فقد تم عزل أبي الحسين بن المهتدي من الخطابة بجامع المنصور لأنه كان قد أقام الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي ببغداد خلال فتنة البساسيري وعين أبا علي الحسن بن عبد الودود بن المهتدي بالله خطيباً في مكانه سنة 451هـ [5]، ومن العوامل التي ساعدت على ضعف شأن الدعوة الفاطمية في أواخر عهد الخليفة القائم بأمر الله إلى جانب مناهضة السلاجقة لهذه الدعوة، انصراف الخلافة الفاطمية في مصر عن مواصلة جهودها لنشر دعوتها في بلاد العراق كما كانت الحال عند قيام البساسيري بحركته، وذلك بسبب انشغالها بالقضاء على الفتن والاضطرابات الداخلية، فقد ظهر التنافس بين العناصر الأجنبية وبخاصة السودان والأتراك، كما خرج ناصر الدولة الحسين بن حمدان التغلبي قائد الأتراك على طاعة الخليفة المستنصر بالله الفاطمي وأنفذ رسالة إلى ألب أرسلان سلطان السلاجقة سنة 462هـ سأله أن يمده بالنجدات ليقيم الدعوة العباسية على أن تؤول إليه السيادة على مصر، فلما علم الخليفة الفاطمي بمراسلة ناصر الدولة السلطان ألب أرسلان جهز جيشاً لمحاربته غير أن ناصر الدولة أوقع به الهزيمة وأقام الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسي على منابر الإسكندرية ودمياط وجميع أنحاء الوجه البحري[6]، ولم يكتف ناصر الدولة بن حمدان بحذف اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة بالوجه البحري بل أنفذ كتاباً إلى الخليفة القائم بأمر الله يلتمس منه الإمدادات والخلع حتى يظهر الدعوة العباسية بالديار المصرية ـ ولم ينتظر رد الخلافة العباسية بل سار إلى الفسطاط على رأس قواته واستولى عليها، وتولى الحكم فيها، وأنفذ إلى الخليفة المستنصر وأظهر ميله إلى المذهب السني غير أن ناصر الدولة لم تستقر لـه الأمور بالقاهرة طويلاً، فقد ثار به

(1) المصدر نفسه (772/15).
(2) البداية والنهاية (774/15).
(3) المصدر نفسه (772/15).
(4) سياسة الفاطميين الخارجية، جمال سرور ص 208.
(5) الكامل في التاريخ نقلاً عن الأحوال السياسية والدينية ص 78.
(6) تاريخ مصر، ابن ميسر ص 19، 20.

الأتراك ونجحوا في القضاء عليه [1]، وكان للشدة العظمى التي تعرضت لها مصر مدة سبع سنوات وصفها صاحب النجوم الزاهرة فقال:.. هذا والغلاء بمصر يتزايد، حتى أنه جلا من مصر خلق كثير لما حصل بها من الغلاء الزائد عن الحد، والجوع الذي لم يُعَهد مثله في الدنيا، فإنّه مات أكثر أهل مصر، وأكل بعضهم بعضاً، وظهروا على بعض الطبّاخين أنه ذبح عدة من الصَّبيان والنساء وأكل لحومهم وباعها بعد أن طبخها وأكلت الدواب بأسرها[2]، كان لهذه الشدة أثر بالغ في شغل الخلافة الفاطمية عن مواصلة إرسال الدعاة وإمدادهم بالأموال فاقتصر اهتمامها على الاحتفاظ بما تبقى لها من نفوذ في الجزيرة العربية، وتأييد دعاة الإسماعيلية في بلاد فارس واليمن [3].

5- دخلت الدولة السلجوقية في صراع مع الروم واستطاع إبراهيم ينال أن يأسر ملك كبير للروم، فبذل في نفسه أموالاً عظيمة فأبى عليه، فبعث نصر الدولة صاحب الجزيرة وميّافارقين يشفع في فكاكه فبعثه طغرل بك إلى نصر الدولة بلا فداء فتأثر ملك الروم، وأهدى إلى طغرل بك مئتي ألف دينار، وخمس مئة أسير، وألفاً وخمس مئة ثوب، ومائة لبنة فضة، وألف عنز أبيض، وثلاث مائة شهري [4] وبعث إلى نصر الدولة تحفاً ومسكاً كثيراً [5]. وقد قام طغرل بك بإرسال رسوله ناصر بن إسماعيل العلوي إلى ملكة النصارى، فاستأذنها ناصر في الصلاة بجامع قسطنطينية جماعة يوم جمعة، فأذنت له فخطب للخليفة القائم، وكان هناك رسول خليفة مصر بعث ملك الروم إلى طغرل بك هدايا وتحفاً، والتمس الهدنة، فأجابه، وعُمّر مسجد القسطنطينية، وأقام فيها الخطبة لطغرل بك، وتمكن ملكه [6].

6- خطبة طغرل بك بابنة الخليفة وزواجه منها ووفاته: في سنة 543هـ خطب الملك طغرل بك ابنة الخليفة فانزعج من ذلك، وقال: هذا شيء لم تَجْر العادة بمثله ثم طلب أشياء كثيرة كهيئة المبعد له، من ذلك ما كان لزوجته التي توفيت من الإقطاعات بأرض واسط وصداق ثلاثمائة ألف دينار، وأن يقيم المِلك ببغداد لا يترحَّلُ منها ولا يحيد عنها يوماً أبداً، فوقع الاتفاق على بعض ذلك، وأرسل إليها بمائة ألف دينار مع ابنة أخيه داود زوجة الخليفة أرسلان خاتون، وأشياء كثيرة من آلات الذهب والفضة والنَّشار والجواري والكُراع، ومن الجواهر ألفان ومائتا قطعة، من ذلك سبعمائة وعشرون قطعة جوهر وزن كل واحدة ما بين الثلاثة مثاقيل إلى المثقال، وأشياء كثيرة. فتمنَّع الخليفة لفوات بعض الشروط، فغضب عميد الملك الكندري الوزير لمخدومه السلطان، وجرت شُرور طويلة اقتضت أن أرسل السلطان كتاباً يأمر فيه بانتزاع ابنة أخيه السيدة أرسلان خاتون، ونقلها من دار الخلافة إلى دار المِلكِ حتى تنفصل هذه القضية، وعزم الملك على النُّقلة من بغداد، فانزعج الناس لذلك، وجاء كتاب السلطان إلى رئيس شحنة بغداد برشقٍ يأمره بعدم المراقبة وكثرة

(1) الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق ص 79.
(2) النجوم الزاهرة(15/5، 16).
(3) الأحوال السياسية والدينية في بلاد العراق ص79.
(4) البرذون الشهري: بين الرَّمَكةِ والفرس العتيق.
(5) سير أعلام النبلاء (111/18).
(6) المصدر نفسه (110/18).

العسف في مقابلة ردَّ أصحابنا بالحرمان، وبعزمه على نقلة الخاتون إلى دار المملكة ويرسل من يحملها إلى البلدة التي هو فيها، وكلُّ ذلك غضب على الخليفة، فإنا لله وإنا إليه راجعون [1].

وفي عام 454هـ وردت الكتب الكثيرة من الملك طغرل بك يشكو قلة إنصاف الخليفة، وعدم موافاته له بما أسداه إليه من الخدم والنَّعم إلى ملوك الأطراف، وقاضي القضاة الّدامغاني، فلما رأى الخليفة ذلك، وأن الملك قد أرسل إلى نوابه بالاحتياط على أملاك الخليفة - وقد انزعج لذلك - كتب إلى الملك طغرل بك يجيبه إلى ما سأل، فلما وصل إلى الملك فرح فرحاً شديداً، وأرسل نوابه أن يطلقوا أملاك الخليفة، فلما انتهت الركابية إلى بغداد، دقّت البشائر بدار الخلافة، وطيف بالركابية وبين أيديهم الدبادبُ والبوقات وفرح الناس بإجابة الخليفة إلى ذلك، واتَّفقت الكلمة، فوكل الخليفة في العقد، وكتب بذلك وَكالة، ثم وقع العقد بمدينة تبريز بحضرة الملك طُغرل بك، وعمل سِماطا عظيماً، فلمّا جيء بالوكالة قام لها الملك، وقبَّل الأرض عند رؤيتها، ثم أوجب العقد على صداق أربعمائة ألف دينار، وكثُر دعاء الناس للخليفة، وذلك في يوم الخميس الثالث عشر من شعبان من هذه السنة، ثم بعث ابنة أخيه الخاتون أرسلان خاتون زوجة الخليفة في شوال بتُحَفٍ عظيمة وذهب كثير، وجواهر عديدة ثمينة، وهدايا عظيمة لأمِّ العروس وأهلها كلِّهم، وقال الملك جهرة للناس: أنا عبد قِنٌّ للخليفة ما بقيت، لا أملك شيئاً سوى ما عليَّ من الثياب [2].

أ- دخول الملك طُغرل بك على بنت الخليفة ووفاته: لما استقر الملك طغرل بك ببغداد أرسل وزيره عميد الملك إلى الخليفة يُطالبه بنقل السيدة من الدار العزيزة النبوية إلى دار المملكة، فتمنَّع الخليفة من ذلك، وقال: إنكم سألتم أن يعقد العقد فقط لحصول التشريف والتزمتم لنا بعدم المطالبة بها، فتردَّد في ذلك بين الخليفة والملك، وأرسل الملك زيادة على النقد مائة ألف دينار ومائة وخمسين ألف درهم، وتُحفاً أخَرَ، وأشياء لطيفة، فلما كان ليلة الاثنين الخامس عشر من صفر هذه السنة زُفَّت السيدة ابنة الخليفة إلى دار المملكة، فضربت لها السُّرادقات من دجلة إلى دار المملكة، وضربت الدَّبادب والبُوقات عند دخولها دار المملكة وكانت ساعة عظيمة، فأجلست على سرير مُكَلَّل بالذهب وعلى وجهها بُرقعٌ، ودخل الملك طُغرل بك، فوقف بين يديها، فقبَّل الأرض ولم تقم له ولم تَرهُ، ولم يجلس حتى انصرف إلى صحن الدار، والحُجَّابُ والأتراك يرقصون هناك فرحاً وسُروراً [3]، وبعث لها مع الخاتون أرسلان ابنة أخيه زوجة الخليفة عقدين فاخرين وقطعة ياقوت حمراء كبيرة هائلة، ودخل من الغد فقبَّل الأرض، وجلس على سرير مكلَّل بالفضة بإزائها ساعة ثم خرج وأرسل لها جواهر نفيسة كثيرة مثمَّنة، وفَرَجية نسيج مُكلَّلة باللؤلؤ، وما زال كذلك كلّ يوم يدخل ويقبل الأرض ويجلس على سرير بإزائها، ثم يخرج فبعث بالتحف والهدايا ولم يكن منه إليها شيء مقدار سبعة أيام، ويَمُدُّ كلَّ يوم من هذه الأيام السبعة سِماطاً عظيماً، وخلع يوم السابع على جميع الأمراء، ثم عرض له سفر واعتراه مرض، فاستأذن الخليفة بالانصراف بالسيدة معه إلى تلك البلاد

(1) البداية والنهاية (871/15، 782).
(2) البداية والنهاية (785/15) تاريخ دولة آل سلجوقص 26.
(3) المصدر نفسه (789/15).

مدة قريبة، ثم يعود بها، فأذن لـه الخليفة بعد تمنع شديد وحزن عظيم، فخرج بها معه وليس معها من دار الخلافة سوى ثلاث نسوة، برسم خدمتها، وتألمت والدتها لفقدها ألماً عظيماً جداً لا يُعَبَّرُ عنه وخرج السلطان وهو مريض مُدْنِفٌ ميأوس منه مُثْقَلٌ لا ترجى منه العافية فلما كانت ليلة الأحد الرابع والعشرين من رمضان جاء الخبر بأن الملك طغرل بك توفي في ثامن الشهر رحمه الله[1]، وكان الملك طغرل بك عاقلاً حليماً كثير الاحتمال شديد الكتمان للسَّر محافظاً على الصلوات وعلى صوم الاثنين والخميس، مواظباً على لبس البياض وكان عمره يوم مات سبعين سنة، ولم يترك ولداً وكان مدة ملكه بحضرة القائم سبع سنين وأحد عشر شهراً[2]، وكان طغرل بك كثير الصدقات حريصاً على بناء المساجد متعبداً متهجداً، ويقول: أستحي من الله أن أبني داراً ولا أبني بجنبها مسجداً [3] وحكى عميد الملك أن طغرل بك قال له: رأيت في منامي في مبتدأ أمري بخراسان كأني رفعت إلى السماء وقيل لي: سل حاجتك تُقضى، فقلت: ما شيء أحب إليَّ من طول العمر، فقيل: عمرك سبعون. قال: عميد الملك وكنت سألته عن السنة التي ولد فيها، فقال: السنة التي خرج فيها الخان الفلاني بما وراء النهر، فلما توفي حسبت المدة فكانت سبعين سنة كاملة، ولما وصل خبر وفاته إلى بغداد جلس الوزير فخر الدولة ابن جهير للعزاء في صحن السلام في السادس والعشرين من شهر رمضان [4].

7- الوزير السلجوقي الأول عميد الملك الكندري: هو الوزير الكبير، عميد الملك، أبو نصر، محمد بن منصور بن محمد الكندري، وزير السلطان طغرل بك، كان أحد رجال الدهر سؤدداً وجوداً وكتابة، تفقه وتأدب، وكان كاتباً لرئيس، ثم ارتقى وولى خوارزم، وعظم، ثم عصى على السلطان، وتزوج بامرأة ملك خوارزم، فتحيَّل السلطان حتى ظفر به، وخصاه لتزوجه بها، ثم رقَّ له، وتداوى وعُوفي ووزر له، وقدم بغداد، ولقَّبه القائم سيد الوزراء، وكان معتزلياً له النظم والنثر[5]، وكان ذكياً فصيحاً شاعراً، لديه فضائل جمّة، حاضر الجواب سريعه، ولمّا أرسله طغرل بك إلى الخليفة يخطب إليه ابنته، وامتنع الخليفة من ذلك أشَّد الامتناع وأنشد متمثلاً بقول المتنبي.

ما كل ما يتمنى المرء يُدركه

فتمَّمَه الوزير:

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

فسكت الخليفة وأطرق[6].

ويقال : غَنَّتْهُ بنت الأعرابي في جماعة من الناس، فطرب، وأمر لها بألفي دينار، ووهب أشياء

(1) البداية والنهاية (789/15).
(2) المصدر نفسه (790/15).
(3) تاريخ دولة آل سلجوق للأصفهاني ص 28.
(4) المصدر نفسه ص 28.
(5) سير أعلام النبلاء (113/18، 114).
(6) البداية والنهاية(6/15).

ثم أصبح، وقال : كفارة المجلس أن أتصدق بمثل ما بذلت البارحة. وقيل:

إنه أنشد عند قتله:

إن كـان بالنـاس ضِـيقٌ عـن منافسـتي ::: فـالموت قـد وسـع الـدنيا علـى النـاس
مضـيت والشـامتَ المغبـون يتبعنـي ::: كـل بكـأس المنايـا شـارب حاسـي

وقال: ما أسعدني بدولة بني سلجوق: أعطاني طغرل بك الدنيا، وأعطاني ألب أرسلان الآخرة[1]، ووزر تسع سنين وأخذوا أمواله، منها ثلاث مائة مملوك، وقتل صبراً وطيف برأسه[2]، قال الذهبي: وما بلغنا عنه كبير إساءة لكن ما على غضب الملك غيار [3]. قتل بمرو الرُّوذ في ذي الحجة سنة ستَّ وخمسين وأربع مائة وله اثنتان وأربعون سنة وكان يؤذي الشافعية، ويبالغ في الانتصار لمذهب أبي حنيفة [4]، وذكرت له ترجمة موسعة في رسالة للماجستير للسيدة سميعة عزيز محمود بعنوان الوزارة العباسية من 447هـ إلى 590هـ - العهد السلجوقي - [5].

* * *

(1) سير أعلام النبلاء (114/18).
(2) المصدر نفسه (114/18).
(3) المصدر نفسه (114/18).
(4) المصدر نفسه (114/18).
(5) الوزارة العباسية 447هـ /590هـ العهد السلجوقي ص 169.